يوسف درويش

«أيها العمال دافعوا عن حقوقكم. كونوا لجان الإضراب، كونوا صناديق الإضراب».
يوسف درويش
(من منشور أصدرته لجنة العمال للتحرير القومى)

سمعنا اسمه كثيرا سواء فى أحاديث بول جاكو أو صادق سعد. فقد كان واحداً من الثلاثة الذين أوكل إليهم بول جاكو مهمة تأسيس تنظيم شيوعى فى مصر فمن هو؟ والآن نستمع إليه:

«ولدت عام ١٩١٠ لأسرة يهودية، أبى كان واحداً من أمهر من اشتغلوا فى حرفة الصياغة بدأ بافتتاح ورشة صغيرة فى الصاغة، ثم إلى جوارها افتتح محلا كبيرا للمصوغات وأصبح واحداً من أشهر تجار الصاغة. الأسرة ميسورة تقترب من الأعيان المتوسطين فأحد أقاربى كان مراد بك فرج محامى الخديوى عباس حلمى الثانى، ومن أقاربى أيضا الموسيقار الشهير داود حسنى. دخلت مدرسة الفرير بالخرنفش ثم الكلية الفرنسية بالظاهر (١٩٣٠) ثم سافرت إلى فرنسا حيث حصلت على شهادة الدراسات العليا وليسانس الحقوق وعدت عام ١٩٣٤». ولكن كيف بدأت رحلتك السياسية؟ وأجاب: «كنت متحمساً منذ البداية للحركة الوطنية ولسعد زغلول وزاحمت وأنا طفل، المستقبلين له فى محطة مصر عند عودته من المنفى. وكنت أزداد حماساً مع كل حدث. وفى مدرسة الفرير ألقيت محاضرة حماسية عن الثورة الفرنسية فغضب المدرس المشرف على الجمعية واتهمنى بأننى «ثورى» فأسست جمعية ثقافية خارج المدرسة من عدد من زملائى الطلاب منهم حامد سلطان (أستاذ القانون الدولى فيما بعد) وأحمد بدرخان (المخرج السينمائى الشهير وعضو الحركة المصرية للتحرر الوطنى فيما بعد) وما إن شعرت إدارة المدرسة بنا حتى أخذت تحذر التلاميذ من نشاطنا». ثم..

«وذات يوم وقع فى يدى عدد من مجلة تصدر بالفرنسية واسمها "عالم مصر"، وكان محررها، أحمد راشد، ذا فكر تقدمى وقرأت فيها مقالا رائعا عنوانه «دفاعاً عن الاتحاد السوفيتى" ولم أنم، إنه العشق من أول نظرة». ونمضى مع يوسف درويش.

«وتحددت ملامحى الفكرية: وفدى متحمس، يسارى وتقدمى لا يعرف كيف يكون يسارياً حقاً. وعندما مات سعد زغلول زاحمت المشيعين وظللت ألبس بدله سوداء وكرافتة سوداء لمدة شهر». ثم. «وعندما سافرت إلى فرنسا للدراسة فى تولوز شاركت فى جمعية الطلبة العرب، وكان معى من المصريين حامد سلطان وبهاء الدين كامل (والد د. حسين كامل بهاء الدين) وكنا نناقش معاً ونقرأ معا، وانغمست فى القراءة عن الثورة الفرنسية وعدد من الكتب الماركسية واستمعت إلى خطب نارية من المحامى الشهير مورو جيافيرى الذى ترافع عن ديمتروف الزعيم الشيوعى أمام المحاكم النازية. وهناك فى تولوز وجدت فرصة لا تتكرر: محام شيوعى ألمانى أتى إلى فرنسا هربا من النازية فتح بيته مدرسة لتدريس الماركسية للشبان وتتلمذت هناك». ويمضى فى حواره معى «كان المحامى "بوشر" يشرح لنا الماركسية بحماس وبساطة وأخذت أنصت لأفهم وتحول الفهم إلى قناعة والقناعة إلى عشق ودعتنى صديقة فرنسية إلى اجتماعات إحدى خلايا الحزب الشيوعى وكنت أحضر كمستمع. ثم أسست أنا وعدد من الشبان لجنة الطلبة ضد الفاشية والحرب». ويعود يوسف درويش فى ١٩٣٤ إلى مصر. عاد شيوعيا ومعاديا للفاشية. وذات يوم حضر حفلا فى ناد إيطالى بالقاهرة وعزف نشيد الشباب الفاشستى ووقف الجميع احتراما إلا هو. حاول البعض دفعه للوقوف، ورفض وبعد انتهاء النشيد تجمع الفاشيون حوله وضربوه علقة ساخنة، إنه أول ثمن يدفعه فى سبيل العشق. وسمع عن جماعة اسمها «اتحاد أنصار السلام» ظل يجوب شوارع وسط العاصمة حتى عثر على المقر والتقى هناك مع بول چاكو.. وكانت بداية جديدة. ونستمع إليه.

«التقيت هناك بمجموعة مثيرة للدهشة، مصريون ديمقراطيون وليبراليون ومعادون للفاشية ومنهم عبد الرازق السنهورى (أشهر أساتذة القانون المدنى وأول رئيس لمجلس الدولة فيما بعد) وعبد الوهاب العشماوى وفاطمة نعمت راشد»، وطبعا التقيت بزميلى الكفاح الأبدى صادق سعد وريمون دويك. ويحكى يوسف بدايات عمله فى اتحاد أنصار السلام: «فى عام ١٩٣٦ وصلت إلى مصر لجنة عصبة الأمم المكلفة التحرى عن رأى

الشعب المصرى بشأن مشاريع تقسيم فلسطين وذهبت أنا وريمون دويك وتحدثنا معها ورفضنا أى قرار للتقسيم مطالبين بأن تكون فلسطين وطناً موحداً لأبنائها. وفى ذات العام حضر وفد من الثوار الفلسطينيين (موسى الخالدى وأحمد الحسينى) وكلفت إبلاغهما تضامننا مع نضالهم».

ورأينا فيما سبق كيف تم حل اتحاد أنصار السلام مع اشتعال الحرب. وكيف بدأت محاولة تأسيس تنظيم شيوعى. وأسس يوسف «جماعة نشر الثقافة الحديثة» بهدف محو الأمية وتعليم اللغة العربية والحساب وتاريخ مصر، والفرع الأول كان فى بيته ٧ سكة جلال الملك فى بولاق. ثم فرع آخر فى السبتية بشارع ورشة القطن، وثالث يقترب من الفلاحين فى ميت عقبة، ورابع فى طنطا، وخامس فى أبو صير الملق (قرية حلمى يسن).

وهكذا اندفع «الحديدى» (وهذا هو الاسم الحركى ليوسف درويش) بكل قواه نحو الالتحام بالجماهير الحقيقية.

* * *

«ظهرت "الضمير" فى ميدان النضال حاملة مشعل النور إلى الطبقة العاملة والشعب المصرى، رافعة علم الجهاد لمناهضة الاستعمار والاستغلال حتى تتحرر الإنسانية من الظلم والاستعباد».

يوسف درويش

(مجلة الضمير – ١٩٤٦/٦/٢٤)

وإذ ينغمس المناضل فى بحر الجماهير فإنها تأتى إليه بطاقات متوهجة ولا حدود لها، فمن خلال فصول محو الأمية فى ٧ سكة جلال الملك ببولاق التقى يوسف درويش بمحمود العسكرى المناضل العمالى الشهير، ثم أتى محمد يوسف المدرك، التقطه ريمون دويك إذ كان يعمل عند أحد أقاربه وكان متوهج النشاط، ثم جاء طه سعد عثمان وكان شخصية عمالية ونقابية بارزة، فقد ظل رئيسا للنقابة العامة لعمال النسيج الميكانيكى وملحقاته بالقاهرة وضواحيها من ١٩٣٨ وحتى ١٩٤٢، ثم أمينا لصندوق ذات النقابة من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٤ (طه سعد عثمان – مجلة الكاتب – يوليو ١٩٧١).

وبهذا الثالوث «العسكرى – المدرك – عثمان» بدأ التنظيم الوليد رحلته نحو النضال

العمالى والنقابى. ونقرأ لطه سعد عثمان: «كنت فى ذلك الوقت مع نفر من العمال والنقابيين نقرأ بعض الكتب الاشتراكية، وكان بعض المثقفين الاشتراكيين دائبى الاتصال بنا، واقتنعنا بضرورة تكوين تنظيم سياسى ومجلة تنطق باسمه» وهكذا بدأ يوسف درويش فى إعداد برنامج التنظيم السياسى، والذى أسمى «لجنة العمال للتحرير القومى – الهيئة السياسية للطبقة العاملة» وأصدرت اللجنة مجلة «الضمير» وكان يوسف درويش المشرف السياسى عليها وظل يكتب فيها باستمرار باسم محمود خيرى، «كان صاحب المجلة الدكتور عبد الكريم السكرى وكان شخصية تقدمية مشهورة»، وفى ذات الوقت كان يوسف درويش ينشط فى اتجاه المثقفين فأسهم فى أنشطة لجنة نشر الثقافة الحديثة واستأجر رخصة لمجلة اسمها «الأسبوع» لتصدر باسم اللجنة وكان وفى ذات الوقت ينشر مقالات عديدة فى مجلة «الفجر الجديد» التى أصدرتها ذات المجموعة ويوقع مقالاته باسم «حسن زكى».

نحن إذن أمام مناضل متعدد الأسماء، ومتعدد المواهب.

* يوسف درويش المحامى بالمحاكم المختلطة والمتخصص فى أغلب الأحيان فى القضايا العمالية.

* حسن زكى المحرر فى مجلة «الفجر الجديد» وأحد المسئولين السياسيين عنها.

* محمود خيرى المسئول السياسى عن مجلة «الضمير» «العمالية» وأحد أنشط كتابها.

* الحديدى: اسمه الحركى فى التنظيم الذى لم يكن قد تأسس بعد، واستمر محتفظا بالاسم مع تطور وتعدد أسماء هذا التنظيم. وبالمناسبة فإن اسم «الحديدى» لم يأت من فراغ بل هو مماثلة لذات اسم «ستالين».

وتأتى حملة الطاغية إسماعيل صدقى لتعصف بكل المؤسسات العلنية، وفجأة فى يوليو ١٩٤٦ تغلق: الفجر الجديد والضمير والأسبوع ولجنة نشر الثقافة الحديثة ومدارس محو الأمية ولجنة العمال للتحرير القومى ودار القرن العشرين للنشر، ولم يبق أمام هذه المجموعة سوى العمل السرى، وفى سبتمبر ١٩٤٦ يجتمع سبعة مناضلين ليؤسسوا الطليعة الشعبية للتحرير «ط.ش.ت» وأعد يوسف درويش لائحة التنظيم وكانت لائحة حديدية تليق بالحديدى وتليق بتراث «ما لا ينفع يضر»، واختير الحديدى مسئولا للتنظيم وفى البداية كان أعضاء التنظيم ٢٤ عضوا وبعد الاجتماع تقرر ضم ٥٠ عضوا آخرين.

وفى مايو ١٩٤٨ تعلن حرب فلسطين وتعلن معها الأحكام العرفية، وفى نوفمبر ١٩٤٨ يقبض على يوسف درويش ويرسل إلى معتقل هايكستب. وفيما هو فى معتقل هايكستب ولدت زوجته إقبال ابنة أسمتها «نولة» باعتبار أن يوسف قد ترك لها هدية قبل أن يعتقل.

وفى هايكستب التقيت معه، ولم أزل أذكره، شورت كاكى والصدر عار تماما يكسوه شعر كثيف ونشاط عارم وحيوية دافقة وقدر، من الحنان والرعاية يسكبه نحو هذا الطفل التائه بين حمى الصراعات الفكرية والسياسية الناشبة بين مختلف المنظمات والانقسامات التى ماج بها المعتقل. هذا الطفل التائه هو أنا ولهذا ظللت ممتنا نحوه على الدوام.

وقد ترك يوسف درويش خلفه قبل الاعتقال ثقبا نضاليا مهما هو «مكتب الخدمات النقابية» الذى أصدر عديدا من الدراسات، كثير منها كتبه يوسف درويش بخبرة المحامى العمالى ومنها «دليل النقابات» و«تشريعات العمل» و«قانون إصابات العمل».. إلخ، ويفرج عنه فى عام ١٩٤٩ إثر حملة من اتحاد المحامين الديمقراطيين العالمى، ويقرر يوسف أن يهب حياته كاملة للنضال فيترك مكتبه للمحامى مصطفى كامل منيب ويحترف، يترك الأسرة والمكتب وكل شىء ويختفى، ولكن لا يلبث أن يقبض عليه ليمضى فى السجن ثلاث سنوات (محكمة النقض ألغت الحكم ولكن بعد أن أكمل مدة العقوبة بالسجن)، ويتواصل النضال، ويتواصل السجن، فترات السجن الطويلة تتخللها فترات نضال مستمر، ويرحل يوسف لفترة إلى الجزائر ليترك هناك عطرا يذكره الكثيرون ثم إلى براغ ليمثل مصر فى مجلة «السلم والاشتراكية».

ثم يعود ليواصل النضال من أجل معشوقته التى وهبها كل شىء حتى آخر نسمات الحياة.